الثقافة الإسلامية

(٣٧)

العصـــــــم

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٣٧ -

*   *   *

اسم الكتاب: .... العصم

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:........ مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ }

الاعراف/ ٢٦

اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم

يدخل في سلوك الإنسان مجموعتان من العوامل هما:

«الحوافز» و«الضوابط»، والحوافز هي العوامل التي تدفع الإنسان إلى سلوك وحركة معينة، و«الضوابط» هي التي تضبط «الحوافز»، ضمن حدود، وأُطر، وقوانين إلهية أو طبيعية أو إجتماعية، يتفق عليها الناس وتستقر عليها حياة الناس وسلوكهم وعلاقاتهم.

وهذه الضوابط هي «العصم» التي تقوم بدور كبير في ضبط أهواء الإنسان وغرائزه وشهواته، وهي موضوع هذا البحث.

وتعتبر عنصراً من العناصر الأساسية في منهج التربية الإسلامية، وفيما يلي نحاول إن شاء الله أن نلم إلمامة موجزة ومقتضبة بهذا الموضوع من خلال كتاب الله.

فنتحدث أولا عن معنى العصم، ثم عن دور العصم في حياة الإنسان، ثم نتحدث عن جملة من مفردات «العصم» واحدة بعد أخرى.

ثم عن العوامل التي تهتك العصم في حياة الفرد والمجتمع.

المصطلحات الثلاثة في القرآن

وقبل أن ندخل في هذا البحث لابد من توضيح ثلاثة مصطلحات قرآنية لها صلة مباشرة بتوضيح معنى «العصمة في سلوك الإنسان».

وهي «الفتنة» و«الهوى» و«الابتلاء».

١ـ الفتنة

يسقط الإنسان من خلال عوامل الإثارة والإغراء والهوى والطمع، كما يسقط من خلال النوائب والمصائب. والبأس والضر.

وفي حياة الإنسان توجد مجموعتان من عوامل السقوط خارج النفس الإنسانية، في ساحة الحياة:

المجموعة الأُولى: هي عوامل الإثارة والإغراء.

والمجموعة الثانية: هي عوامل البأس والضر.

والآية التالية من آل عمران تعدد طائفة من عوامل الإغراء والإثارة في حياة الإنسان خارج النفس **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ**

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}(١).

وهذه طائفة من أمهات مصادر وعوامل الإثارة والإغراء في واقع حياة الإنسان وفي ساحة الحياة خارج النفس.

النساء، البنون، الذهب، والفضة، الخيل المسومة، الأنعام، الحرث.

وآية البقرة تشرح طائفة من المجموعة الثانية وهي عوامل البأس والضر:

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}(٢).

وهذه طائفة من مصادر البأس والضر في ساحة الحياة، خارج النفس، وبإمكاننا أن نسمي الطائفة الأُولى بعوامل «البسط» من قبيل المال ـ الجنس، الكرسي، والموقع

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦.

الاجتماعي ـ الأولاد والبنون.

وتسمّى الطائفة الثانية بعوامل «القبض»، من قبيل الخوف، وعوامل الجوع، والمرض، والسجون، والتعذيب، والمطاردة. وكلتا هاتين الطائفتين في الثقافة الإسلامية «فتنة». وتقعان خارج النفس؛ إلا أن الطائفة الأُولى «فتنة الخير» أو فتنة السرّاء والطائفة الثانية «فتنة الشر» أو فتنة الضراء.

يقول تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}(١).

وعن الطائفة الأُولى من الفتن يقول تعالى:

{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ}

وفي هذه الطائفة من الفتن ورد عن رسول الله 2 :

«إن في مال الرجل فتنة، وفي زوجته فتنة»(٢).

وورد في صفة عيسى بن مريم عليه السلام عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «ولم تكن له زوجة تفتنه»(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً لرجل يسمّى «حرب»، كان

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) كنز العمال: ح ٤٤٤٩٠.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٦٠.

يمشي معه، والإمامعليه السلام راكب: «إرجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن»[(١)].

وفي الطائفة الثانية: «فتنة الشر» أو فتنة الضرّاء.

ورد عن رسول الله 2 :

«الفقير عند الغني فتنة والضعيف عند القوي فتنة»[(٢)].

وورد عن أميرالمؤمنينعليه السلام في فتنة بني أمية وما أدت إليه هذه الفتنة من هلاك النفوس، والحرث، والنسل، والأذى، والعذاب للمؤمنين:

«ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية»[(٣)].

والإنسان قد يسقط في «فتنة الضرّاء»، كما قد يسقط في «فتنة السرّاء».

ومن الناس من يسقط في «القبض»، في البأساء والضرّاء، ومن الناس من يهلك ويسقط في «البسط»، في اليسر والرخاء والسرّاء، وفي وسط عوامل الإثارة والإغراء. وعلى عكس ما

---

(١) نهج البلاغة باب الحكم ـ الحكمة رقم: ٣٢٢.

(٢) كنز العمال: ح ٢٥٦٣.

(٣) الغارات للثقفي ١: ٦ و١٠.

يتصور الإنسان فإن خطر عوامل البسط «في اليسر والرخاء» أعظم على الإنسان من خطر عوامل القبض في «البأساء والضراء».

والذين يسقطون في الطائفة الأُولى من عوامل الفتنة أكثر من الذين يسقطون في الطائفة الثانية.

وقد روي عن رسول الله 2 : «أنا لفتنة السرّاء أخوف عليكم من فتنة الضراء، إنكم إبتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة»[١].

وكما أن «الفتنة» في بُعديها من مزالق السقوط في حياة الإنسان كذلك هي سلّم للصعود والارتقاء إلى قرب الله تعالى في حياة الإنسان. وعلى هذا السلّم يصعد ناس إلى الله تعالى في السرّاء والضراء، كما يسقط ناس آخرون في أحضان الشيطان من على هذا السلم في السراء والضراء.

٢ـ الهوى

و«الهوى» في مقابل «الفتنة» فإن الفتنة قائمة في واقع

---

(١) الترغيب والترهيب ٤: ١٨٤.

الحياة خارج النفس، والهوى في داخل النفس.

والهوى يطلب الفتنة، وينجذب إليها. والفتنة تجذب الهوى ـ ومثال ذلك «الغريزة الجنسية» و«الجنس الآخر». فإن الغريزة تطلب الجنس الآخر، وتنجذب إليها، والجنس الآخر يجذبُ الهوى. وهكذا «حبُّ المال» و«المال» يقول تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا }[1] فإن «حب المال» هوى نابع من داخل النفس، و«المال» فتنة خارج النفس من فتن السرّاء، وغريزة حبّ المال تطلب المال ـ والمال يجذب الغريزة. وهكذا نجد في مقابل كل فتنة خارج النفس هوى داخل النفس.

يطلب الهوى الفتنة، وتجذب الفتنة الهوى. هذا في فتنة الخير (فتنة السرّاء).

وفي فتنة الشر الأمر بالعكس يجزع الهوى من الفتنة، وتضغط الفتنة على الهوى.

وسقوط الإنسان في فتنة الخير الاستسلام للفتنة ودعوة الهوى، وفي فتنة الشر الجزع والانهيار تجاه الفتنة.

---

(١) الفجر: ٢٠.

والهوى في حياة الإنسان يعتبر من أقوى عوامل السلوك، وقد ورد في القرآن عن امرأة العزيز: {**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**}[١].

وقد إستخدم القرآن في هذه الآية مجموعة من أدوات التأكيد[٢] لتركيز هذه الحقيقة.

ولأمر ما خلق الله تعالى الهوى بهذه الدرجة من القوة والتأثير في حياة الإنسان، فإن «الهوى» من أقوى عوامل السلوك في حياة الإنسان، ولولا الهوى لم تستقر حياة الإنسان، ولم تتصل ذريته، ولم يعمر على وجه الأرض، ولم تعرض الارض ولم يدافع عن نفسه.

إلاّ أن الهوى مع ذلك يعتبر أخطر المزالق والمهالك في حياة الإنسان.

وليس في حياة الإنسان خطر أعظم من خطر الهوى.

---

(١) يوسف: ٥٣.

(٢) الجملة إسمية: متصدرة بأن، ولام التأكيد، وصيغة أمّارة الدالة على المبالغة وكل ذلك من أدوات التأكيد.

٣ـ الابتلاء

وابتلاء الإنسان في علاقة الهوى بالفتنة تزاوج الهوى والفتنة. فإن الهوى يطلب الفتنة. والفتنة تدعو «الهوى»، كما ذكرنا، وفي هذا الطلب والدعوة، وهذه الجاذبية في الفتنة للهوى، مصدر الابتلاء في حياة الإنسان. فإن الأهواء تطغي وتُلِحّ في الطلب. وهي قوية مؤثرة ونافذة.

وليس في أصل الاستجابة للهوى بأس في الحدود التي يقرّها العقل والدين.

فإن الاستجابة «مثلا» للغريزة الجنسية في الحدود التي يقرّها العقل والدين تحفظ الإنسانية من الاندثار.

والاستجابة لغريزة الغضب في الحدود التي يقرها العقل والدين تحفظ الإنسان من عدوان الآخرين، وتمنح الإنسان المقاومة أمام تجاوز الآخرين.

إلا أن الهوى يطغى **{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}**، ويتجاوز حدود العقل والدين، ويملك من القوة والتأثير ما يمكّنه من إختراق هذه الحدود.

وفي ذلك إبتلاء الإنسان. فإذا قاوم الإنسان إندفاع الهوى، وتمكّن من أن يضبط أهوائه وشهواته عند حدود الله تعالى

والالتزام بحلاله وحرامه، أفلح وفاز، وإذا ضعف الإنسان عن مقاومة زخم الهوى، واستسلم للهوى في طغيانه سقط وهلك {فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[1].

وقد يكون إبتلاء الإنسان بفتنة الخير، كما في الابتلاء بالأموال والأزواج والبنين، وقد يكون إبتلاء الإنسان بفتنة الشر، كما في إبتلاء الإنسان بالفقر والمرض والبأساء والضراء.

{وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}.

وفي كل من هذين الابتلائين لا يستوي حال الإنسان قبل الابتلاء وبعده، فإن الإنسان في الابتلاء إما أن يسقط أو يصعد.

والناس على سلّم الابتلاء على طائفتين: طائفة تسقط إلى الجحيم، وطائفة أخرى ترتقي إلى الجنة.

---

(١) النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

والابتلاءات في حياة الإنسان خافضة رافعة، تخفض أناساً وترفع آخرين.

ومصدر الابتلاء في حياة الإنسان الاحتكاك المباشر الذي يتم بين الأهواء من داخل النفس والفتن القائمة في مساحة الحياة «خارج النفس».

نظرية العصم

إذن لا يصح ولا يجوز أن نسمح لأهوائنا أن تطغى وتتجاوز الحدود، ولا يصح أن ننساق معها، وننقاد لطلباتها ودعواتها، ولابد من عمل جاد لضبط الهوى وتحديده وتعديله، لكيلا يطغى ويتجاوز الحدود وهذا أمر لا يختلف فيه أحد من العقلاء ولكن كيف؟

وبأي منهجية في التربية يمكن ضبط الأهواء والشهوات. النظرية الرهبانية تتجه إلى كبت الهوى وكبح الشهوات والغرائز.

وهذا اتجاه معروف في هذه المدرسة، وله جذور عميقة تمتد إلى أعماق التاريخ وتتلخص هذه النظرية في عزل «الأهواء» عن «الفتن»، وتجنب متاع الحياة الدنيا، والابتعاد عنها. فإن مشكلة الإنسان مادامت تكمن في الاحتكاك، وفي العلاقة بين الهوى والفتنة، فإن سلامة الإنسان تكمن في عزل الهوى عن الفتن، وإعتزال الدنيا ومغرياتها ومثيراتها.

وتتم هذه المنهجية من خلال «إعتزال» الحياة الدنيا، ومن خلال «كبت» الغرائز وكبحها.

وهذه منهجية معروفة في تاريخ الفكر تتلخص في

(الاعتزال) و(الكبت) وتمتد هذه المدرسة في بعض خطوطها وإمتداداتها المعاصرة إلى الرهبانية المسيحية. والإسلام يعارض هذه المنهجية معارضة شديدة، ويرى أن «الاعتزال» و«الكبت» و«الكبح» ليس فقط لا يحل مشكلة الإنسان تجاه الأهواء والفتن، وإنما يحرف الإنسان إلى إتجاه معاكس لمسيرة سنن الله في خلق الإنسان. ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات من سورة الأعراف: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ، بغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ باللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**[١].

وهذه الآية الكريمة تدعو أولا إلى الدخول في الدنيا،

---

(١) الأعراف: ٣١ ـ ٣٣.

والتمتع بطيباتها، من دون إسراف: {**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ**}.

ثم تشجب موقف أولئك الذين يحرمون ما أحلّ الله من طيبات الدنيا: {**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**}.

ثم تذكر الآية أن الدنيا وما فيها من الطيبات للذين آمنوا، يشاركهم فيها غيرهم من المشركين، وأما في الآخرة فلهم هذه الطيبات خالصة دون المشركين: {**قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**}

ثم تبين الآية المباركة أن الله تعالى حرّم فقط الفواحش في هذه الدنيا ما ظهر منها وما بطن، وحرم الإثم والبغي والعدوان.

إذن يرفض الإسلام الدعوة إلى مقاطعة الدنيا، ويأمر بالتمتع بطيّبات الدنيا، ويشجب عمل أولئك الذين يقاطعون الدنيا، ويحرمون ما أحل الله من الطيبات.

ومن هذه الطيبات ما يفتن الله تعالى بها عباده، ومع ذلك كله لا يأمرنا الله تعالى أن نعتزلها ونتبرأ منها، وإنما يأمرنا تعالى أن نتجنب الفواحش منها فقط، وأن نحذر التجاوز

لحدود الله.

سمع أميرالمؤمنين عليه السلام رجلا يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة.

قال عليه السلام: «أراك تتعوذ من مالك وولدك. يقول تعالى: {أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ}، ولكن قل اللّهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن»[1].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «لا يقولن أحدكم اللّهم إني أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من إستعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ}»[2].

إذن ما هي المنهجية التي يتبعها الإسلام في ضبط الهوى وتعديله وتحديده؟

إن الإسلام يطرح بهذا الصدد نظرية جديدة ومنهجاً تربوياً جديداً لضبط الهوى، وهذه النظرية هي نظرية «**العصم**».

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٣٥.

(٢) بحار الأنوار ٩٤: ١٩٧.

إن «العصم» في سلوك الإنسان تشبه «العازل» في الفيزياء.

أرأيت كيف يتعامل الإنسان مع النار والكهرباء من خلال العازل، دون خطر.

كذلك الإنسان يستطيع أن يتعامل مع الفتن والمغريات والمثيرات في الحياة الدنيا من خلال «العصم»، دون أن يمسه أي خطر من ناحية هذه الفتن والمغريات. ومن الخطأ أن ندعو الناس إلى مقاطعة التعامل مع النار والكهرباء لأنها حارقة وصاعقة، ولكن من الضروري أن يكون التعامل مع النار والكهرباء من خلال العازل الذي يعصم الإنسان ويحفظه من خطر النار والكهرباء.

كذلك لا يصح أن ندعو الناس إلى مقاطعة «الفتن»، ومن هذه الفتن أموال الناس وأولاده، وإنما يجب على الإنسان أن يعصم نفسه في التعامل مع هذه الفتن والمثيرات والمغريات بمجموعة من العصم التي تحميه منها.

وهذه العصم إذا تكاملت في حياة الفرد والمجتمع تقوم بدور هام في تلطيف الغرائز وتعديلها وضبطها وتمكين صاحبها منها.

وهي تُملّك الإنسان وتُمكّنه من أهوائه وشهواته، كما ورد

في النصوص الإسلامية.

والتعبير دقيق، فإن من الناس من تملكه أهـواؤه وشـهواته، ومن الناس من يملك أهواءه وشهواته. إذن لا يصح فـي ديـن الله المنع من دخول الدنيا ولكـن مـن يـدخل الـدنيا يجـب أن يملك هواه، ويـتمكن منـه، وهـذا هـو المقيـاس الفاصـل بـين الهوى والهدى في حياة الإنسان.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«من ملك نفسه إذا غضب، وإذا رهـب، وإذا إشـتهى حـرم الله جسده على النار»[١].

وفي حديث آخر:

«من ملك نفسـه إذا رغـب، وإذا رهـب، وإذا إشـتهى، وإذا غضب، وإذا رضي حرم الله جسده على النار»[٢].

توضيح آخر لدور العصم في حياة الإنسان

ولمـا كانـت هـذه النقطـة هـي المحـور الـرئيس فـي هـذا المقال فلابد من إعطاء توضيح أكثـر لـدور العصـم فـي حيـاة

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ٢٤٣.

(٢) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٨.

الإنسان.

وفيما يلي هذا التوضيح:

إنَّ الإنسان كالحيوان تراكم من الغرائز والأهواء والشهوات، وتؤدي هذه الغرائز والأهواء دوراً أساسياً في حياة الإنسان، فهي أقوى العوامل في حركة الإنسان وسلوكه، ولولا الهوى لتعطلت حركة الإنسان وسعيه. وكذلك الأمر في الحيوان.

ويتميز الهوى عند الإنسان عن الحيوان بأن الطاقة الغريزية عند الحيوان تتحدد غالباً بالإشباع، وأما في الإنسان فلا يتوقف عند حد من الحدود إذا أطلق الإنسان العنان لهواه

وكلما إستجاب الإنسان لغرائزه وأهوائه أكثر تمادى الهوى في الطلب والإلحاح أكثر.

ولذلك فإن طبيعة سلطان الهوى على الإنسان ترشح الإنسان لحياة تشبه حياة الحيوان، أو تزيد عليه.

فإن الحيوان يمارس شهواته وغرائزه من دون رادع ولا عاصم، والقانون الوحيد الذي يحكم حياة الحيوان هو القوة، فإن الضعيف خاضع للقوى وهما خاضعان للغريزة.

والإنسان بطبيعة تركيبه الغريزي مرشح لمثل هذا النظام،

لـو لـم تتـدخل عوامـل العصـم فـي تعـديل الغرائـز والأهـواء وتنظيم حياة الإنسان.

وهـذا النظـام الحـاكم فـي عـالم الحيـوان هـو مـا يلخصـه القرآن في كلمتي «الطاغوت» و«الهوى».

فإن الإنسان إذا أطلق لأهوائـه العنـان، تَحَكَّـم «الطـاغوت» في سائر الناس وأستضعفهم، ويتحكّم «الهوى» في الطاغوت.

وهـذا النسـيج الإجتمـاعي الجـاهلي يشـبه إلـى حـد كبيـر النسيج القائم في حياة الحيوان، إلا أن الله تعالى أعـدَّ الإنسـان لخلافته تعالى، وحمَّلـه رسـالة الأمانـة الإلهيـة. وهـذه الرسـالة التـي أعـد الله تعـالى الإنسـان لهـا تتطلـب مـن الإنسـان أن لا يسترسـل مـع الهـوى كمـا يسترسـل الحيـوان، وإلا تشـغله الطيبات من متاع الدنيا كما تشغل البهيمة.

يقـول أميـر المـؤمنين عليه السلام: «فمـا خُلقـت ليشـغلني أكـل الطيبـات كالبهيمـة المربوطـة همهـا علفهـا أو المرسـلة شـغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها»[1].

ولكي يتمكن الإنسـان مـن أن يـنهض بمسـؤولية الخلافـة

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

الإلهيـة، أودع الله تعـالى فـي نفـس الإنسـان، وفـي المجتمـع مجموعة من العصم، وهذه العصـم تسـتر غرائـز الإنسـان، فـلا يخرج الإنسان إلى ساحة الحياة كمـا يخـرج الحيـوان بغرائـزه وشهواته مكشوفاً عارياً، وإنما تستره العصـم **{وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ}**.

ومن هذه العصـم مـا أودعهـا الله تعـالى فـي عمـق الـنفس بصورة تكوينية، والتربية تعمقهـا وتركّزهـا أكثـر فـي الـنفس، كالحيـاء، والعفـة، والرحمـة، فـإن هـذه العصـم الثلاثـة تسـتر الغرائز بشكل واضح وتلطفها.

فالغريزة الجنسية في الحيوان والإنسان سـواء، إلا أنهـا فـي الحيوان مكشوفة وعارية وفي الإنسان يكسوها الحياء والعفـة، فيمنع الإنسان مما لا يمنع عنه الحيوان، ليس لعجز في الغريـزة عند الإنسـان، وإنمـا بسـبب مـن عصـمتي «الحيـاء» و«العفـة»، فإنّهما تلطفان غريـزة الجـنس كثيـرا، وتعـدّلانها، وتحـدّدانها، وتضبطانها، وتكّفان الغريزة الجنسية وتلطّفان إفرازها وعملهـا و(التربية)، وكذلك «الرحمـة» تقـوم بـدور كبيـر فـي تلطيـف وتعديل غريزة الغضب.

فـإن الإنسـان والحيـوان سـواء فـي غريـزة الغضـب، إلاّ أن

هذه الغريزة مكشوفة وعارية في الحيوان، وتكسوها «الرحمة في الإنسان».

ومن هذه العصم ما يكتسبه الإنسان، وللتربية دور أساس في تمكين هذه العصم في حياة الإنسان، مثل الذكر، والصلاة، والصوم، والتقوى، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والذكر مطردة للشيطان، والصوم جنة من النار، والتقوى لباس يستر الإنسان، ويحفظه من لدغ الذنوب والخطايا.

{وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ}.

ومن العصم ما أودعه الله تعالى في حياة الإنسان الاجتماعية، كالجماعة المؤمنة، والحياة الزوجية، فإن الجماعة تحفظ المؤمن من الانزلاق والسقوط، والحياة الزوجية عصمة للزوجين، وهذه ثلاث طوائف من العصم في النفس (بالفطرة) وبـ (الاكتساب) و(في المجتمع).

العصمة من الله

وقبل أن نبحث عن طائفة من مفردات العصم نودُ أن نذكر نقطة جديرة بالاهتمام وهي أن الله تعالى مصدر كل عصمة في حياة الإنسان، ولولا أن الله تعالى يعصم الإنسان

من مزالق الهوى لما عصم الإنسان شيء. فإن الإنسان ضعيف تجاه ضغط الهوى والفتن يقول تعالى: **{وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا}**[١].

والأهواء قوية وفاعلة في نفس الإنسان.

يقول القرآن عن لسان امرأة العزيز في قصة يوسف: **{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}**.

وأمام هذه الحالة المزدوجة من ضعف الإنسان من جانب وقوة الهوى من جانب آخر ليس للإنسان إلا أن يعتصم بالله تعالى ليعصمه من السقوط والهلاك في مزالق الأهواء والفتن.

ولقد كان الرسل والأنبياء وعباد الله الصالحون يعتصمون بالله إذا أراد الشيطان أن يداهمهم، وأحسّوا بالضعف أمام قوة الهوى وإندفاعه.

يقول القرآن في قصة يوسف، عن لسان امرأة العزيز، عندما لامها نساء قومها لما راودت يوسف عن نفسه: **{قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ**

---

(١) النساء: ٢٨.

فَاسَتَعْصَمَ }[1].

والاستعصام هو طلب العصمة من الله تعالى. وقد إستعصم يوسفعليه السلام بالله عندما راودته امرأة العزيز عن نفسه، وحاصره الشيطان، وغالبه الهوى، وهذه العصمة هو قوله تعالى في نفس السورة: **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }**[2] فجاءه برهان من ربه، وصرف الله عنه السوء والفحشاء. ويعلّل القرآن نزول هذا البرهان على يوسفعليه السلام، وصرف السوء والفحشاء عنه بأنه كان من عباد الله المخلصين.

ولولا أن الله تعالى يعصمه ببرهان منه لهمّ بها كما همّت به.

إذن على الإنسان في لحظات ضعفه، أن يلجأ إلى الله تعالى، ليعصمه، ويحفظه، والله تعالى العاصم، الساتر، الواقي،

---

(١) يوسف: ٣٢.

(٢) يوسف: ٢٤.

الــذي يعصــم عبــاده، ويســترهم، ويصــرف عــنهم الســوء والفحشاء، ويطرد عنهم الشيطان.

وقد ورد في نصوص الأدعيـة الـواردة عـن أهـل البيـت ^ الإشارة إلى الاعتصام بالله تعالى كثيراً، وبصـورة مؤكـدة، وفيمـا يلــي نشــير إلــى طائفــة مــن هــذه النصــوص: ففــي المناجــاة لأميرالمؤمنين عليه السلام:

«الهي لا سبيل إلى الاحتراس من الذنب إلا بعصمتك، ولا الوصول إلى عمل الخيرات إلاّ بمشيئتك، فكيف لي بإفادة مـا أسلفتني فيه مشيئتك، وكيـف بـالاحتراس مـن الـذنب مـا لـم تدركني فيه عصمتك»(١).

وفي المناجاة للإمام زين العابدين عليه السلام:

«إلهي في هذه الدنيا هموم، وأحزان، وغموم، وبلاء، وفـي الآخرة حساب وعقاب، فأين الراحـة والفـرج، إلهـي خلقتنـي بغير أمري، ووكلت فيَّ عدواً لي له علـيّ سـلطان، يسـلك بـي البلايا مغروراً، وقلت لي إستمسـك، فكيـف أستمسـك إن لـم

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٠٥.

تمسكني؟!»[١].

وكان من دعاء علي بن الحسين صلى الله عليه وآله في يوم عرفة:

«وهب لي عصمة، تدنيني من خشيتك، وتقطعني عن ركوب محارمك وتفكني من أسر العظائم، وهب لي التطهير من دنس العصيان»[٢].

وأيضاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«إلهي لا حول لي ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك، فأسألك ببلاغة حكمتك ونفاذ مشيئتك أن لا تجعلني لغير جودك متعرضاً... ومن البلايا واقياً، وعن المعاصي عاصماً»[٣].

وأيضاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«إلهي فلا تخلنا من حمايتك، ولا تُعرِنا من رعايتك... أسألك بأهل خاصتك من ملائكتك والصالحين من بريتك، أن تجعل علينا واقية تنجينا من الهلكات، وتجنبنا من الآفات...

---

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٢٩.

(٢) الصحيفة دعاء: ٤٧.

(٣) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٣.

وأن تحوينا في عصمتك»[١].

وأيضاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة المعتصمين:

«إلهي... بك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها... إلهي فزهدنا فيها وسلمنا منها بتوفيقك وعصمتك...»[٢].

وفي مناجاة الزاهدين عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«وأحفظنا من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن جميع نواحينا، حفظا، عاصماً من معصيتك، هادياً إلى طاعتك، مستعملا لمحبتك»[٣].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً:

«اللهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلصها، وأبقِ لنفسي من نفسي ما يصلحها؟ فإن نفسي هالكة أو تعصمها»[٤].

---

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٩٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٤: ١٥٢.

(٣) الصحيفة، دعاء: ٦ «من دعائه عند الصباح والمساء».

(٤) الصحيفة، دعاء: ٢٠ >من دعائه في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال<.

ثلاث طوائف من العصم

قلنا إن الله تعالى أودع في النفس والمجتمع ثلاث طوائف من العصم:

١ـ العصم المغروسة في عمق النفس (العصم الذاتية).

٢ـ العصم التي يكتسبها الإنسان ويعمل بها (العصم المكتسبة).

٣ـ العصم القائمة في واقع الحياة (العصم الاجتماعية).

وفي ما يلي نحاول أن نستعرض بعض مفردات العصم في حياة الإنسان في النفس والمجتمع من هذه الطوائف الثلاثة من العصم.

أولاـ العصم المغروسة في عمق النفس

«العصم الذاتية»

من أعظم هذه العصم «الضمير». وهو آخر قلعة يقاوم الأهواء والفتن في نفس الإنسان، وقد تسقط القلاع التي يحتمي بها الإنسان من شر الهوى والشيطان، واحدة بعد الأُخرى، ويبقى الضمير، يقاوم الجريمة، ويردع صاحبه عنها، فإذا سقط الضمير، فقد نفذ ما في النفس من مقاومة وصمود.

ولذلك يعتبر الضمير أقوى العصم التي تعصم الإنسان وتحفظه، والتربية لا تأتي بالضمير، ولكن تركزه وتعمقه، وتوظفه لتعديل سلوك الإنسان. والعفة عصمة أخرى أودعها الله تعالى في نفس الإنسان. وهي حالة مغروسة في عمق النفس، لا تأتي بها التربية، ولكن التربية تعمقها وتوظفها لتعديل وضبط الغريزة الجنسية.

وتوجد هذه العصمة في نفوس أكثر الناس على درجات مختلفة، تقوى، وتضعف، بإختلاف التربية، والوسط الذي يعيشه الإنسان، والممارسات التي يمارسها الإنسان.

وقد تسقط هذه العصمة بصورة نهائية في حياة الإنسان فتبقى الغريزة الجنسية مكشوفة وعارية، كما هي في الحيوان.

والحياء عصمة في مقابل حالـة الصـلف والوقاحـة، وهـذه العصمة نابعة مـن داخـل الـنفس، ولهـا دور واسـع فـي ضـبط الغرائز وتلطيفها وتحديدها.

يقول الإمام الصادقعليه السلام علـى مـا فـي روايـة المفضـل بـن عمرو، في حديث التوحيد:

«أنظـر يـا مفضـل إلـى مـا خَـصَّ بـه الإنسـان، دون جميـع الحيوان مـن هـذا الخلـق الجليـل قـدره العظـيم غنـاؤه، أعنـي «الحياء» فلولاه لم يُقْرَ ضيف، ولم يُـوفَ بالعـداة، ولـم تُقْضَ الحوائج، ولم يُتَحَرَّ الجميل، ولم يُتَنَكَّب القبيح في شـيء مـن الأشـياء، حتـى أن كثيـراً مـن الأُمـور المفترضـة إنمـا يفعـل بالحياء. فإن في الناس مَن لولا الحياء لم يرع حق والديه، ولم يصل ذا رحم، ولم يؤد أمانة، ولم يعف عن فاحشة»[(١)].

وعن رسول الله 2 : «إستحيوا من الله حق الحياء».

فقيل يا رسول الله ومن يستحي من الله حق الحياء؟

فقال من إستحيى من الله حـق الحيـاء، فليكتـب أجلـه بـين عينيه، وليزهد في الـدنيا وزينتهـا، ويحفـظ الـرأس ومـا حـوى

(١) بحار الأنوار: كتاب التوحيد، حديث المفضل.

والبطن وما وعى»[١].

وفـي روايـة أخـرى: «رحـم الله مـن إسـتحيا مـن الله حـق الحياء، فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى»[٢].

وقد روي عن علي عليه السلام في هذا الشأن:

«الحياء يصدّ عن الفعل القبيح»[٣].

و«على قدر الحياء تكون العفة»[٤].

وقد ورد التأكيد فـي النصـوص الإسـلامية فـي الاسـتحياء من الله تعالى والملكين الّذين يراقبان الإنسان في الخلوات.

عن رسول الله 2 : «ليستح أحدكم من ملكيه الـذين معـه، كما يستحي من رجلين من صالحي جيرانه، وهما معـه بالليـل والنهار»[٥].

ومن وصية رسول الله 2 لأبي ذر & :

«يا أبا ذر، إستحي من الله، فإني والذي نفسـي بيـده لأظـل

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٣١٧.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٣٠٥.

(٣) ميزان الحكمة ١: ٧١٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الدراية لابن حجر ١: ١٦٠.

حين أذهب إلى الغائط متقنعاً بثوبي أستحي من الملكين الذين معي»[١].

والخوف من الله تعالى عصمة يعصم الإنسان عن الذنوب، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«الخوف سجن النفس من الذنوب ورادعها عن المعاصي».

وعنه أيضاً عليه السلام: «نعم الحاجز عن المعاصي الخوف».

وعنه أيضاً عليه السلام: «خِفِ الله خوف من ينشغل بالفكر قلبه، فإن الخوف مظنة الأمن، وسجن النفس عن المعاصي».

وعنه أيضاً عليه السلام: «من كثرت مخافته قلت آفته».

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}**:

›من علم أنّ الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى‹[٢].

---

(١) كنز العمال: ح ٥٧٥١.

(٢) راجع ميزان الحكمة ١: ٨٢٨ باب ثمرات الخوف.

ثانيا ـ عصم يكتسبها الإنسان

«العصم المكتسبة»[1]

١ـ التقوى:

ومن أهم هذه العصم «التقوى». وقد عبر القرآن الكريم عنه بـ «اللباس» واللباس عاصم وساتر يقول تعالى: {**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ**}.

وهو تعبير دقيق، فاللباس الذي يألفه الناس يستر سوآت الجسم، والتقوى يستر سوأت الروح والنفس، واللباس يحمي جسم الإنسان مما يلاقيه من حرّ وبرد وأذى، كذلك التقوى يحمي روح الإنسان ونفسه وعقله من الفتن ومكايد الشيطان ومغريات الدنيا.

روى «القمي» عن أبي جعفر الباقرعليه السلام في تفسير آية

---

(١) هذه العصمة أيضاً لها أصول وجذور في نفس الإنسان كالطائفة الأُولى، ولكن تغلب عليها صفة الاكتساب بالتعليم والتربية. ولذلك ميزناها عن الطائفة الأُولى.

التقوى من سورة الأعراف: «فأما اللباس فالثياب التي يلبسون، وأما لباس التقوى فالعفاف، لأن العفيف لا تبدو له عورة، وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر بادي العورة، وإن كان كاسياً من الثياب»(١).

وفي هذا المعنى روي عن الإمام علي عليه السلام:

«ثوب التقى أشرف الثوب»(٢).

وعنه عليه السلام: «من تعرى من لباس التقوى لم يستتر بشيء»(٣).

ومن روائع كلمات الإمام في «التقوى» قوله عليه السلام:

«أوصيكم بتقوى الله... أشعروها قلوبكم، وارحضوا بها ذنوبكم... ألا فصونوها وتصوّنوا بها»(٤).

فكما يصون اللباس الإنسان كذلك على الإنسان أن يصون لباسه، كما يصونه لباسه. ولكي يستفيد الإنسان من خدمة ملابسه وثيابه عليه أن يخدمها، كذلك التقوى يصون

---

(١) تفسير القمي.

(٢) غرر الحكم للآمدي «حرف التاء».

(٣) بحار الأنوار ٧٧: ٢٣٦.

(٤) نهج البلاغة خطبة رقم: ١٩١.

الإنسان من المعاصي والذنوب، وعلى أن يصونها كما تصونه.

وفي بعض النصوص الإسلامية ورد التعبير عن التقوى «بالحصن» و«الجُنَّة» و«المنعة» و«العصمة».

وكل ذلك يؤكد المعنى الذي أشرنا إليه في عصمة التقوى.

عن رسول الله 2 : «إن الله عز ذكره يعصم به من أطاعه، ولا يعصم به من عصاه»(١).

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «التقوى حصن حصين لمن لجأ إليه».

وروي عنه عليه السلام أيضاً: «إلجأوا إلى التقوى فإنها جُنَّة مَنِيعَة. من لجأ إليها حصّنته، ومن إعتصم بها عصمته»(٢).

وعنه عليه السلام: «إن التقوى عِصْمة لك في حياتك، وزُلْفى لك بعد مماتك»(٣).

(١) روضة الكافي ٨: ٨٢.

(٢) ميزان الحكمة ٤: ٣٦٢٧.

(٣) ميزان الحكمة ٣: ١٩٩٧.

وعن الصادق عليه السلام: «أيما مؤمن أقبل (على) ما يحب الله، أقبل الله عليه (بـ) كل ما يحب، ومن إعتصم بالله بتقواه عَصَمه الله، ومن أقبل الله عليه وعصمه، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، وإن نزلت نازلة على أهل الأرض، فتشملهم بلية كان في حرز الله بالتقوى من كل بلية، أليس الله تعالى يقول: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}»(١).

وعن علي عليه السلام: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها الزمام والقوام، فتمسّكوا بوثائقها، واعتصموا بحقائقها، تؤل بكم إلى أكنان الدعة وأوطان السعة»(٢).

وعنه عليه السلام أيضاً: «واعتصموا بتقوى الله، فإن لها حبلا وثيقاً عروته، ومعقلا منيعاً ذروته»(٣).

وعنه عليه السلام: «التقوى قرنت بالعصمة»(٤).

وعنه عليه السلام إلى أهل مصر: «عصمكم الله بالتقوى، وثبتكم

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٥.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٩٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٩٠.

(٤) غرر الحكم.

بالتقوى»(١).

وعنه عليه السلام: «إن في سلطان الله عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتكم، غير ملومة، ولا مستكره بها»(٢).

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في التعريف بالتقوى:

«إعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه»(٣).

وهذه النصوص تؤكد جميعاً هذه الخصلة الأساسية في التقوى، وهي العصمة والوقاية من الأهواء والفتن والشياطين.

وهي مقتبسة جميعاً من كتاب الله يقول تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}(٤).

فقد أودع الله تعالى في التقوى من النور والبصيرة ما لا يستطيع الشيطان أن يخترقه، فإذا اقترب (طائف) من الشيطان

---

(١) آمالي المفيد: ٤٩.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٦٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٥٧.

(٤) الأعراف: ٢٠١.

من المتقين تذكروا سريعاً، وتنبهوا بصورة مبكـرة، ومـن دون تأخير، فـإذا هـم مبصـرون، وعلـى بيّنـة مـن الأمـر، فيطـردون الشيطان ووساوسه وإغرائه عنهم.

٢ـ الذكر

ومن العصم الذكر، ومعنى الذكر هو استشـعار حضـور الله واستشعار سلطانه وعلمه وجلاله وجمالـه... فـي مقابـل الغفلـة وغياب القلب عن حضور الله. وأما ذكر الله تعالى باللسان فهـو تعبير وإبراز لاستشعار حضور الله ونعمته وجلاله وجماله.

ومن الواضح أن الذكر بهـذا المعنـى الـذي بينـاه مـن أهـم العواصم التي تعصـم الإنسـان مـن الوقـوع فـي مزالـق الهـوى والفتنة.

فـإن الإنسـان عنـدما يستشـعر جـلال الله تعـالى، وجمالـه، وقوته، وسـلطانه، وحضـوره، فـي قلبـه، ويعـي ذلـك يسـتحيل على الإنسان أن يعصي الله تعالى أو ينقـاد للهـوى، ويسـتجيب له. وعلى قدر إستشعار القلب لحضور الله تعـالى يكـون تـأثير الذكر في عصمة الإنسان ووقايته. وكلما يكون القلـب أوعـى لجلال الله وجماله وحضوره يكون الإنسان أقوى على مقاومة الأهواء والاثارات والفتن ووساوس الشيطان.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «ثلاث من أشد ما عمل العباد: إنصاف المرء نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كل حال، وهو أن يذكر الله عزّوجلّ عند المعصية يهم بها، فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عزّوجلّ: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}**»[1].

وهذا هو الذكر الذي يعصم الإنسان من الذنب.

وقد ورد هذا المعنى في النصوص الواردة عن أهل البيت ^ بصورة واسعة. وفيما يلي نذكر طائفة من هذه النصوص التي تؤكد دور الذكر في عصمة الإنسان:

في الحديث القدسي: «إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي. فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حُلْت بينه وبين أن يسهو. أولئك أوليائي حقاً. أولئك الأبطال حقاً»[2].

وأيضاً في الحديث القدسي: «إذا كان الغالب على العبد

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٩.

(٢) بحار الأنوار ٩٣: ١٦٢.

الاشتغال بي جعلت بُغْيته ولذته في ذكري، فإذا جعلت بُغْيته ولذته في ذكري... رفعت الحجاب بيني وبينه، لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء أولئك الأبطال حقاً»(١).

وفي مناجاة موسى عليه السلام قال: «يا رب أقريب فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك... فقال الله: أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا دعاني»(٢).

وعن علي عليه السلام: «من عمّر قلبه بدوام الذكر حُسَنَتْ أفعاله في السر والجهر».

وفي الحديث القدسي: «أيّما عبد إطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته، وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه».

وعن علي عليه السلام: «عليكم بذكر الله، فإنه نور القلوب».

وعنه عليه السلام: «الذكر نور ورشد والنسيان ظلمة وفقد».

وعنه عليه السلام: «إنَّ الله سبحانه جعل الذكر جلاءً للقلوب،

---

(١) كنز العمال: ح ١٨٧٢.

(٢) كنز العمال: ح ١٨٧١.

تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة».

وعنه عليه السلام: «ذكر الله مطردة الشيطان».

وعنه عليه السلام: «ذكر الله رأس مال كل مؤمن، وربحه السلامة من الشيطان».

وعنه عليه السلام: «ذكر الله دُعامة الإيمان، وعِصْمَة من الشيطان».

وعن رسول الله 2 :

«إن الشيطان واضع خطمه على قلب إبن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسى التقم، فذلك الوسواس الخناس»[١].

وقال نوف البكالي: رأيت أمير المؤمنين صلوات الله عليه مولياً مبادراً فقلت: أين تريد يا مولاي؟

فقال: «دعني يا نوف إن آمالي تقدمني في (إلى) المحبوب. فقلت: يا مولاي وما آمالك؟

قال: قد علمها المأمول واستغنيت عن تبيينها لغيره، وكفى بالعبد أدباً أن لا يشرك في نعمه وإربه غير ربه. فقلت: يا أميرالمؤمنين إني خائف على نفسي من الشره، والتطلع إلى

(١) راجع ميزان الحكمة ٢: ٩٦٩ ـ ٩٧١.

طمع من أطماع الدنيا.

فقال لي: وأين أنت عن عصمة الخائفين، وكهف العارفين؟!

فقلت: دلني عليه، قال: الله العلي العظيم، تصل أمَلَك بحسن تفضله، وتقبل عليه بهمك، وأعرض عن النازلة في قلبك، فإن أجلك بها، فأنا الضامن من موردها، وانقطع إلى الله سبحانه فإنه يقول: وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل من يؤمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة في الناس، ولأبعدنه من قربي، ولاقطعنه عن وصلي...

ثم قال عليه وعلى آله السلام لي: يا نوف أُدع بهذا الدعاء:

«إلهي إن حمدتك فبمواهبك، وإن مجدتك فبمرادك (فبأِرادتك) وإن قدستك فبقوتك، وإن هلّلتك فبقدرتك، وإن نظرتُ فإلى رحمتك، وان عضضت فعلى نعمتك، إلهي إن من لم يشغله الولوع بذكرك، ولم يزوه السفر بقربك، كانت حياته عليه ميتة، وميتته عليه حسرة...»[1].

---

(١) بحار الأنوار ٩٤: ٩٤ و٩٥.

٣ـ الحكمة والموعظة

ومن العصم الحكمة والموعظة:

عن علي عليه السلام: «لا تخلُ نفسك من فكرة تزيدك حكمة وعبرة تفيدك عصمة».

وعنه عليه السلام: «الاعتبار يثمر العصمة».

وعنه عليه السلام: «الحكمة عصمة والعصمة نعمة».

وعنه عليه السلام: «قرنت الحكمة، بالعصمة»(١).

٤ـ التمسك بالقرآن

ومن العصم التمسك بالقرآن وقراءته ووعيه والتأمل فيه:

عن علي عليه السلام: «عليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين، والعصمة للمتمسك»(٢).

وكان من دعاء الإمام السجاد عليه السلام: «لا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته»(٣).

(١) راجع ميزان الحكمة ٣: ١٩٩٨ باب موجبات العصمة.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٥٦.

(٣) الصحيفة، دعاء: ٤٢.

٥ـ الصدق في التعامل مع اللّه

عن الباقر عليه السلام: «إذا علم الله تعالي حسن نية من أحد إكتنفه بالعصمة»(١).

والتربية الصالحة «من العصم»

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «ألا وإن الدعي إبن الدعي قد ركّز بين إثنين بين السِلّة والذّلة. وهيهات منا الذّلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت»(٢).

٦ـ الاستعاذة

ومن العصم الاستعاذة بالله من وساوس الشيطان وسلطان الهوى وإثارات الفتن، فإن الإنسان ضعيف، وسلطان الهوى على الإنسان نافذ وقوي، والشيطان يرقب نقاط الضعف في حركته، ويرصده عند كل مزلق من مزالق الهوى، وعند كل فتنة، فإذا إستعاذ بالله، ودعى الله تعالى إلى أن يعصمه من شرور نفسه ووساوس الشيطان وفتن الدنيا، وكان صادقاً في إستعاذته بالله وإعتصامه به تعالى عصمه الله ووقاه من مزالق

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ١٨٨.

(٢) مثير الأحزان: ٤٠.

الهوى وفتن الدنيا ووساوس الشيطان. يقول تعالى: {**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ باللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**}(١).

٧ـ الصلاة:

ومن العصم في حياة المؤمنين الصلاة فإنها تعصم عن الفحشاء والمنكر يقول تعالى: {**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ**}(٢).

---

(١) الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

ثالثاً ـ العصم القائمة (في الحياة الاجتماعية)

وهناك طائفة ثالثة من العصم في واقع حياة الإنسان الموضوعي، خارج دائرة النفس، خلقها الله تعالى في المجتمع لحماية الإنسان وعصمته، ووقايته من مضلات الفتن ومغرياتها، ومن الأهواء والشياطين، من هذه العصم النظام السياسي والإداري الذي ينفّذ أحكام الله تعالى في حياة الإنسان، فإنّ لهذا النظام دور كبير وواسع في النهى عن المنكر، وردع الناس عن إرتكاب الجرائم والمحرمات وتجاوز حدود الله تعالى، وتثبيت الحدود الإلهية في حياة المجتمع.

وقد ورد في النصوص الإسلامية كلمات وإشارات كثيرة في هذا الأمر منها ما روى الصدوق في «علل الشرائع» عن الفضل بن شاذان في حديث طويل عن الإمام. جاء فيه «فإن قال: فلم جعل أولي الأمر، وأمر بطاعتهم؟ قيل لعلل كثيرة:

منها إن الخلق لما وقفوا على حد محدود، وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم، ولم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم عن التعدي

والدخول فيما خطر عليهم، لأنه لو لم يكن كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيّما، يمنعهم عن الفساد، ويُقيم فيهم الحدود والأحكام»(١).

ومن هذه العصم «الجماعة المؤمنة» وصحبة الصالحين، فإنها عاصمة للإنسان من كثير من أنواع السقوط الخلقي والفكري.

وتؤكد النصوص الإسلامية دور الجماعة المؤمنة في حماية الإنسان ووقايته وعصمته كثيراً. منها ما روي عن رسول الله 2 :

«يد الله على الجماعة فإذا إشتذ الشاذ منهم إختطفه الشيطان، كما يختطف الذئب الشاة الشاذة من الغنم»(٢).

وروي عن رسول الله 2 أيضاً: «يد الله على الجماعة والشيطان مع من خالف الجماعة يركض»(٣).

وعن رسول الله 2 أيضاً: «إتبعوا السواد الأعظم، يد الله

---

(١) علل الشرائع ١: ٩٥١، ح ٩، ب: ١٨٢.

(٢) كنز العمال ١: ٢٠٧.

(٣) كنز العمال ١: ٢٠٧.

على الجماعة، من شذ شذ في النار»[١].

ومن العصم الحياة الزوجية. وكل من الزوجين عصمة للآخر من الفتن والأهواء يقول تعالى: {**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ**}[٢].

والتعبير عن الحياة الزوجية باللباس تعبير دقيق ورائع عن دور كل من الزوجين، في الحياة الزوجية، في ستر الطرف الآخر وحمايته وعصمته، فالزوجات لباس للأزواج يسترنهم من الفتن والأهواء، ووساوس الشيطان والأزواج لباس لهن يسترونهن من الفتن والأهواء ووساوس الشيطان.

هل العلم عصمة؟

وفي نهاية هذا البحث لابد من طرح هذا السؤال فقد يتصور بعض الناس أن العلم لوحده عصمة، وهو أمر مرفوض، أثبتت التجارب خلافه في حياة الإنسان.

فما أكثر ما كان العلم سلاحاً بيد المجرمين، وما أكثر ما

---

(١) كنز العمال ١: ٢٠٦.

(٢) البقرة: ١٨٧.

ينتفع المجرمون والطغاة من إنجازات العلم الضخمة في أحكام قبضتهم في الظلم والعدوان وممارسة الإجرام. أما عندما يقترن العلم بالدين والأخلاق فهو من غير شك من أهم أسباب العصمة في حياة الإنسان.

دور الحضارات الجاهلية في تجريد الإنسان من العصم

للضوابط والعصم دور كبير ومؤثر في حركة الإنسان إلى الله.

فإن حركة الإنسان إلى الله تعالى تتم من خلال «العقل» و«القلب» و«الفطرة».

والجسد هو المركب الذي يحمل هذه القوى الثلاثة وإذا كان العقل والقلب والفطرة من العالم الأعلى فان المركب الذي يحملها هو الجسد من عالم الأرض.

وللجسد حاجات ومتطلبات، كما للعقل والقلب والفطرة حاجاتها ومتطلباتها. وحاجات الجسد ومتطلباته تختلف عن حاجات العقل والقلب والفطرة.

والهوى والغرائز هي العوامل التي تدفع الإنسان إلى توفير حاجات الجسد ومتطلباته. إلا أن الهوى لا يقف عند حد معقول، وكلما إسترسل الإنسان في الاستجابة يزداد إلحاحاً

وطلباً. فتنقلب حركة الإنسان من السير إلى الله إلى الهبوط والسقوط.

وهنا تبرز قيمة «العصم» في حياة الإنسان فهي تقوم بدور مؤثر في تعديل حركة الهوى وضبطها، والمحافظة على سلامة دورها في سلوك الإنسان وحركته.

وإذا عرفنا هذا الدور الهام والأساس للعصم في سلوك الإنسان نجد أن الرسالات الإلهية تؤكد دائماً على تربية العصم، وتركيزها وتأصيلها في حياة الإنسان وسلوكه، وربط أهواء الإنسان وشهواته بسلسلة من العصم والضوابط السلوكية.

بينما تعمل الحضارات الجاهلية في إتجاه معاكس تماماً في تجريد شخصية الإنسان من هذه العصم والضوابط، أو إضعافها، وإطلاق العنان للأهواء والشهوات والغرائز، وتمكينها من حياة الإنسان.

وطبيعي أن كل واحد من هذين الاتجاهين يمثل خطاً فكرياً مستقلا عن الآخر.

الاتجاه الأول يمثل الخط الصاعد إلى الله في حياة الإنسان.

والاتجاه الثاني يمثل خط الهبوط والسقوط في حياة الإنسان. والاتجاه الثاني يقوّى الشطر الحيواني من شخصية الإنسان، بينما يقوّي الاتجاه الأول الشطر السامي من شخصية الإنسان.

وهذان خطان معروفان في تاريخ الحضارة من قديم، ولكل منهما خصائصه وإنجازاته ونتائجه في حياة الإنسان.

الذنوب التي تهتك العصم

العامل الحضاري من أهم العوامل التي تؤدي إلى انتهاك العصم وتعرية الأهواء في حياة الإنسان. وهذا الدور من خصائص وإفرازات الحضارة الجاهلية المادية التي تطلق العنان للأهواء والشهوات وتلغى الضوابط الأخلاقية من حياة الإنسان، وهذا حديث واسع لا نريد أن ندخله الآن وقد أشرنا إليه قبل قليل.

والعامل الآخر لانحسار العصم عن نفس الإنسان هو الذنوب.

ودورها دور واسع وكبير في انتهاك العصم واختراقها. فان الإنسان ما لم يعص الله تكون للمعصية حرمة في نفسه تعصمه من اقترافها. فإذا عصى الإنسان وأعادها وكررها

فقدت حرمتها أكثر من قبل، حتى تسقط بصورة نهائية، فلا تبقى للعصيان حرمة وهيبة ورهبة في نفس الإنسان، يقترفها كما يفعل سائر المباحات.

ومن هذه العصم التي تخفّ وترق في نفس الإنسان كلما إرتكب معصية، حتى تسقط بصورة نهائية هي عصمة «الخوف من الله»، وليس من ريب أن «الخوف من الله» من أعظم العصم في نفس الإنسان.

وإذا سقطت هذه العصم في نفس الإنسان انكشف جانب واسع من النفس للفتن ووساوس الشيطان بدون حصانة وردع، وتمكّن الشيطان من أن يغزو الإنسان ويقتحم نفسه من دون رادع مؤثر.

وبنفس المقياس تتساقط سائر العصم، وتنحسر عن نفس الإنسان بالذنوب والمعاصي، فيضعف «الضمير» ويضعف «الحياء» في نفس الإنسان، وتفقد العصم المكتسبة تأثيرها في حماية الإنسان وحفظه.

وسبب ذلك واضح فإن إقتراف المعصية كما يرقق عصمة الخوف، كذلك يرقق عصمة الضمير والعفة وسائر العصم المغروسة في النفس، وكذلك تضعف الذنوب العصم

الأُخرى كالذكر والتقوى في نفس الإنسان.

فإن هذه العصم جميعاً تبدأ بالتآكل من الداخل كلما ارتكب الإنسان ذنباً، وتفقد درجة من تأثيرها وكفاءتها على ردع الإنسان من الذنوب، حتى تفرغ بصورة نهائية من كل محتواها، وتفقد إمكانية الردع والضبط والعصمة، بصورة كاملة. وقد ورد في دعاء كميل الذي علمه أمير المؤمنين عليعليه السلام لكميل بن زياد النخعي & : «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم».

وهي إشارة إلى هذا المعنى.

كما روي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدينعليه السلام في هذا المعنى: «الذنوب التي تهتك العصم شرب الخمر واللعب بالقمار، وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح، وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب»[1].

الستر

الحديث عن العصمة والوقاية يستتبع الحديث عن

---

(١) معاني الأخبار للصدوق: ٢٧٠.

«الستر»، وهما مفهومان متقاربان. والله تعالى «عاصم» و«ستّار» معاً، يعصم الإنسان من الوقوع في شَرَك الشيطان والانقياد للهوى، كما يستر على الإنسان سوآته وسيئاته.

ولولا أن الله تعالى يستر بفضله سوآت الناس وسيئاتهم لفرَّ بعضهم من بعض، ولو انكشف بواطن الناس بعضهم لبعض، وأبليت السرائر في الدنيا، وعرف الناس ما يضمره ويريده الآخرون لتفتت شبكة العلاقات الاجتماعية، ولكنَّ الله تعالى ستر سوآت الناس وسيئاتهم، وما يضمرون ويريدون من سوء، وما يفعلون من قبيح بفضله وستره، ولا يظهر للناس من الناس ـ في الغالب ـ إلا الجميل وقد ورد في قوله «يا من أظهر الجميل وستر القبيح»، والسوأة التي يسترها الله تعالى في نفس الإنسان هي تراكم من السيئات والذنوب والمعاصي، تختزنه النفس، وتتبلور، وتجتمع، بصورة خصال بشعة وكريهة، ومنفرة، داخل النفس، كالحسد، والطمع، والجشع، والحقد، والكراهية، ولو اطلع الناس على ما في أنفس بعضهم من خصال بشعة لولّى بعضهم من بعض فراراً.

ألا أن الله ـ تعالى ـ رأفة بعباده، ورحمة بهم، يستر ذنوبهم وسيئاتهم وسوآتهم، ويفتح لهم أبواب التوبة، وهم في حوزة

ستر الله قبل الموت، قبل أن يأتي اليوم الذي تبلى فيه السرائر. وليس فقط يستر الله تعالى سيئاتنا وسوآتنا عن بعض، وإنما يستر سيئاتنا وسوآتنا حتى عن الملائكة أحياناً، رأفة بعباده ورحمة بهم، فلا يطلع ملائكته على سوآت عباده وسيئاتهم لعلهم يتوبون، ويغفر لهم الله تعالى ذنوبهم، فلا تطلع ملائكته إلا على حسناتهم.

عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام:

«إن المؤمنينَ إذا إعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا إلتزما، لا يريدان عرضاً من أعراض الدنيا، قيل لهما مغفور لكما، فاستأنفا، فإذا أقبلا على المسائلة، قالت الملائكة، بعضها لبعض، تنحّو عنهما، فإن لهما ستراً، وقد ستر الله عليهما. قال إسحاق فقلت: جعلت فداك لا يكتب عليهما لفظهما، وقد قال الله تعالى: **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}**(١).

قال: فتنفس أبو عبد اللهعليه السلام الصعداء ثم بكى، وقال: يا

---

(١) سورة ق: ١٨.

إسحاق إن الله تعالى إنما أمر الملائكة أن تعتزل المؤمنين إذا إلتقيا إجلالا لهما، وأنه إن كانت الملائكة لا تكتب لفظهما، ولا تعرف كلامهما فإنه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السر وأخفى»(١).

والستر من صفات الله الحسنى و«الستّار» من أسمائه الحسنى، تبارك وتعالى، كما أن العصمة من صفاته الحسنى والعاصم من أسمائه الحسنى.

و«العصمة» و«الستر» متقاربان فبالعصمة يستتر الإنسان عن الأهواء والفتن والشيطان، كما أن الستر يحجب سوأة الإنسان وقبائحه عن عيون الآخرين.

وكما أن الذنوب والمعاصي من العوامل التي تهتك العصم عن الإنسان، كذلك الذنوب والمعاصي من العوامل التي تهتك ستر الله تعالى عن الإنسان.

وإذا تمادى الإنسان في غيّه وجهله هتك الله تعالى ستره الذي أرخى عليه، فلا يستره بعد ذلك بشيء.

---

(١) معالم الزلفى للبحراني: ٣٤.

وفيما يلي نذكر طائفة من النصوص الإسلامية عن ستر الله تعالى لعباده وعن الذنوب التي تهتك ستر الله.

والذي يستعرض هذه الروايات بإمعان يجد أن الله تعالى لا يعجل بهتك الستر عن عباده، رأفة بهم، وإنما يمهلهم، فإذا تمادوا في الذنوب والمعاصي أخذهم ببعض سيئاتهم، ورفع عنهم طرفاً من ستره، لعلهم يؤوبون إلى ربهم، ويتوبون، فإذا تمادوا في غيهم وجهلهم، ثم تمادوا وتمادوا وتمادوا كثيراً وطويلاً هتك الله عنهم الستر فلا ينفعهم بعد ذلك شيء.

عن رسول الله **2** : «للمؤمن إثنان وسبعون ستراً فاذا أذنب إنتهك عنه ستر، فإن تاب ردّه الله عليه، وإن أبى إلا قُدُما قُدُماً في المعاصي تَهتَّكت عنه أستاره، فإن تاب ردّها الله اليه، ومع كل ستر سبعة، فإن أبى إلا قُدُماً قُدُماً في المعاصي تهتَّكت أستاره، وبقي بلا ستر، وأوحى الله تعالى إلى ملائكته أن استروا عبدي بأجنحتكم، فإن بني آدم يغيرون ولا يغيرون، وأنا أغير ولا أغير، فإن أبى إلا قُدُماً قُدُماً في المعاصي شكت الملائكة إلى ربها ورفعت أجنحتها وقالت يا رب إن عبدك هذا قد أقذرنا مما يأتي من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

قال فيقول الله تعالى لهم كُفّوا أجنحتكم، فلو عمل الخطيئة في سواد الليل أو في ضوء النهار، أو في مغارة أو قعر بحر، لأجراها الله تعالى على ألسنة الناس فاسألوا الله تعالى أن لا يهتك أستاركم»[١].

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إن لله تعالى على عبده المؤمن أربعين جنة، فمتى أذنب ذنباً رفع عنه جُنةً، فإذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجُنن، فيبقى مهتوك الستر (لاحظوا المسانخة بين الجريمة والعقوبة) فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة، وفي الأرض على ألسنة الناس، ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه، ويقول الملائكة الموكّلون به يا ربنا قد بقي عبدك مهتوك الستر، وقد أمرتنا بحفظه، فيقول عزّ وجلّ ملائكتي لو أردت بهذا العبد خيراً ما فضحته، فارفعوا أجنحتكم عنه، فوعزتي لا يؤول بعدها إلى خير أبداً»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٣٦٣.

(٢) الخصائص للمفيد: ٢٢، وبحار الأنوار ٧٣: ٣٦١.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «ما من عبد يعمل عملا لا يرضاه الله إلا سَتَره الله عليه أولا، فإذا ثنّى سَتَره الله عليه، فإذا ثلّث أهبط الله ملكاً في صورة آدمي، يقول للناس فعل كذا وكذا؛ فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة وفي الأرض على ألسنة الناس، ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه»[١].

كُتبَ في المدينة المنورة
في ٢٥ ذي القعدة ١٤١١ هـ

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٣٦١.

الفهرس